التحصينات العسكرية في المغرب الاسلامي: الأسوار انموذجا

الأستاذ/ شريف عبد القادر

جامعة حسيبة بن بوعلي–الشلف

الملخص:

إكتست الأسوار أهمية بالغة ضمن التحصينات العسكرية،أو مايعرف بالعمارة ا لحربية، قديماوحديثا،بالنظر إلى دورها الدفاعي الإستراتيجي،وبرزت الحاجة إلى تحصين المدن منذالعهود القديمة.عندما نشأت المدن وزادعمرانها وثراؤها،وبدأت تتعرض لهجمات الأعداء،الذين يطمعون في السيطرة عليهاأونهب ثرواتها،مما دفع إلى بناء وتشييدالأسوارحول المدن وتعيين الجند والقادة الذينيتولون الدفاع عنه. ومن هنا كان اتخاذ السور حول المدينةأمرا هاما وضروريا.وتبلورت الدلالة الحضارية للسورالذي يعني الأمن والأمان للسكان،وتأمين المدينة يكفله بناء الأس وار،والأبراج والقلاع،والإسلاماعتبر بناء الأسوار من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض، وهي من،مقاصد الشريعةالإسلاميةحيث صنفها، الفقهاء ضمن البناء الواجب.ومن هذا المنطلق اتجهت الدول الإسلامية وخاصة دول المغرب الإسلامي إلى الإهتمام ببناء الأسواركوسيلة من وسائل الدفاع،و تم تطوير تحصيناته بما يتناسب وتطور الوسائل الهجومية.

الكلمات المفتاحية: الأسوار، التحصينات، الأبراج، القلاع، العمارة الحربية.

مقدمة:

ترتبط العمارة العسكرية الإسلامية بالتّاريخين السياسي والعسكري لدولة الإسلامالتي شهدت فترات متنوّعة من طبيعة العلاقات الداخلية والخارجية. ففضلاً عن الحروب والمعارك الطويلة التي شهدتها منذ بداية عصر الفتوحات الإسلامية، كان على دولة الإسلام أن تدخل في طور التّحدي الكبير لتثبيت أمن وأمان الدولة والدفاع عن حدودها ضدّ القوافل الداخلية التي كانت تنبعث بين حينٍ وآخر بحكم التنوع الكبير الذي ضمّته هذه الدولة من شعوبٍ وبلدانٍ وأعراقٍ وديانات وما ينجم عن ذلك من بقاءٍ كامنٍ لنزعاتٍ وأهدافٍ وغاياتٍ تحاول التعبير عن ذاتها من حينٍ لآخر.

تفنّن المسلمون في إنشاء تحصيناتهم الدفاعية لحماية الدولة من هجمات الأعداء والتّصدي لهم، فبنوا على طول الحدود تحصيناتٍ أطلقوا عليها إسم "الأربطة"، وهي أبنية عسكرية تُمثّل خطّ دفاع متقدمًا عن البلاد، حيث كان يقيم فيها الجنود وعائلاتهم بشكلٍ دائمٍ، فيمارسون فيها حياتهم الدينية والمدنية إضافةً إلى استعدادهم وجاهزيتهم الدائمة لمواجهة أيّ عدوانٍ خارجيٍ أو السيطرة على أيّ فتنةٍ أو خلخلةٍ داخليةٍ.

تُبنَى الأربطة على هيئة نسقٍ معماريٍ مُتماثلٍ. فيغلب على تخطيطها الأشكال المستطيلة، الجدران الحجرية المنتظمة، المزدوجة المزوّدة بالأبراج الدفاعية. أمّا في الداخل، فكان هناك فناء واسع تحيط به غرف لسكن الجنود ومسجد ومَرافق عامة.

والشّكل الآخر من التحصينات العسكرية كان يشمل الأسوار العالية المدعّمة بالأبراج والمُجهّزة بوسائل الدفاع والمراقبة. وقد بُنِيَت هذه الأسوار غالبًا حول المدن لحمايتها وصدّ الحصارات عنها. ويُعَدّ السور من أهم الأبنية العسكرية التي أنشأها المسلمون في مدنهم.

كان لطبيعة الأرض والمكان والموقع الدّور الأساسي في تحديد شكل السور. ولكن السّمات في الأسوار كانت تتمثّل في وجود الأبراج المُجهزة بنقاط المراقبة ومرامي السهام والنوافذ لقذف السوائل المُحرقة. وهناك نقاط متعددة من السور جعلت فيها أبواب مُحكّمة الإغلاق، يحميها برجان أو تكون ضمن برجٍ واحدٍ. ويعود ذلك لأهميّة الباب وما يشكّله من نقاط قوةٍ وضعفٍ.

1 ــ تعريف السور:

شكلت أسوار المدن أهم الاستحكامات الحربية في المغرب الاسلامي، كونها تعد من أهم المنشآت المعمارية الحربية التي يهتم الحكام بتشييدها حماية لمدنهم ودفاعاً عن أملاكهم، والسور مفرد كلمة أسوار وهو بناء يرتفع عن سطح الأرض يحيط بالمدينة كلياً في المدن التي تبنى في السهول والوديان، أو يحيط بها جزئياً كما في المدن التي تبنى في المناطق الجبلية وغالباً ما تستند على جبل عالٍ أو تل مرتفع يحميها من أحد جوانبها.

أ–لغة: سار يسير أي مشى ، و سوار المرأة –جمع أساور و جمع جمعه أساورة ــ معروف– مصداقا

لقوله تعالى: ﴿ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ** ﴾[1]، وسوره تسويرا (بتشديد الواو و فتحها): ألبسه السوار، وتسور الحائط: تسلقه، والسورة (بتشديد السين و ضمها)[2] جمع سور من القرآن والسور جمع أسوار وسيران حائط يطوف بالبيت أو البلدة وكل ما يحيط بشيء من بناء أو غيره ، ونطاق تتخلله أبراج يقوم حول القلعة أو المدينة .[3]

---

1 –سورة فاطر،الآية،34.

2– **عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، مكتبة مدبولي، ط.2000.1، ص153.

3 – **عبد الله العلايلي وآخرون:المنجد في الأعلام**،دار المشرق،بيروت،ط. ،1973.17،ص362.

ب–اصطلاحا: عبارة عن جدار عالي ضخم يحيط بالبناء ، لحمايته أو كل ما يحيط بشيء من بناء أو غيره ، يتميز بالعلو و الضخامة في العرض و الارتفاع و هو تحصين المستوطن من العدو و اللصوص و هو من بين المنشآت الحربية التي تنشأ لهذا الغرض كالدرب و الحفير و كان الناس يتعاونون في بناء الأسوار على نفقتهم و كانت النفقة توزع بينهم وفق نظام معين يقبلونه ويرضونه.[1]

قال الله تعالى: ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ** ﴾[2]

2–أهمية السور:

اكتست الأسوار أهمية كبيرة بالغة ضمن التحصينات العسكرية أو ما يعرف بالعمارة الحربية قديما وحديثا. بالنظر إلى دورها الدفاعي، والاستراتيجي، وبرزت الحاجة إلى تحصين المدن منذ العهود القديمة ، عندما نشأت المدن و زاد عمرانها و ثراؤها ، و بدأت تتعرض لهجمات الأعداء ، الذين يطمعون في السيطرة عليها أو نهب ثرواتها، مما دفع إلى بناء و تشييد الأسوار حول المدن و تعيين الجند و القادة الذين يتولون الدفاع عنها.[3]

و من هنا كان اتخاذ السور حول المدينة أمرا هاما وضروريا. و تبلورت الدلالة الحضارية للسور. الذي يعني الأمن و الأمان. وتأمين المدينة يكفله بناء الأسوار والأبراج والقلاع. التي يزيد من كفاءتها وسهولة إنشائها والاقتصاد فيها ما يتوفر للموقع من ميزات تحصينية طبيعية " كأن يكون على هضبة متوعرة من

---

1 – **الفيروز آبادي،القاموس المحيط،تقديم،محمد عبد الرحمان المرعشلي**،دار إحياء التراث العربي،بيروت ،لبنان،ط.2003،2،ص383؛**ابن الرامي،الإعلان بأحكام البنيان**،تح.محمد عبد الستار عثمان،دار الوفاء،دنيا الطباعة والنشر،الأسكندرية،ص193.

2 – سورة الحديد،الآية،13.

3– **محمد عبد الستارعثمان، المدينة الاسلامية**، سلسلة عالم المعرفة، عدد 168، مطابع الرسالة، الكويت، ص. 108.

الجبل أو باستدارة بحر أو نهر ، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو و يتضاعف تحصينها.[1]

إن إنشاء التحصينات اللازمة كان أمرا تقليديا ، اعتبر من لوازم التخطيط لإنشاء المدن ، و تأثر تخطيط أسوار المدن و تحصيناتها الأخرى من أبراج و قلاع بطبيعة الموقع ،و اختلاف هذه الطبيعة من موقع إلى آخر قوة و ضعفا.[2]

و على الحكام قدر كبير من المسؤولية في تحصين المدن و تخطيطها إذ لا بد من تأمينها من الأعداء وهذا ما أكده ابن الربيع "أن تحوطها بسور خوف اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة...." فهي بذلك نظرة عضوية لكيان المدينة الإسلامية فهي بجملتها دار واحدة.[3]

وكضرورة لتأمين الحاكم و الرعية كان لا بد من إقامة الأسوار لأنها مكملة للتحصين الطبيعي ودعامة أساسية له، بحيث يمكن أهل المدينة من الدفاع عنها. فالسور في العصور القديمة اعتبر من المعايير الحضرية التي تميز المدينة، لأنه يوفر الأمن و الأمان لساكنيها. وهي قيمة حضرية كبيرة تدفع بالعمران وتؤدي إلى ازدهار المدن.[4]

فسار التخطيط الإسلامي للمدن على هذا النهج مستفيدا من خبرة الحضارات السابقة في إنشاء الأسوار و الأبراج والقلاع، وطور عمارتها تطويرا كبيرا مستفيدا من التجربة، وتمثل العمارة الحربية في عمارة المدن الإسلامية جانبا هاما من جوانب الإبداع المعماري الذي يعكس أساليب وطرق الدفاع

---

1 - **عبد الأحد السبتي،وحليمة فرحات،المدينة في العصر الوسيط،المركز الثقافي العربي**،بيروت ،لبنان،ط.1994،1،ص18.

2 - محمد عبد الستار عثمان ،المرجع السابق،ص108

3 - نفسه ،ص111.

4 - عبد الأحد السبتي،المرجع السابق،ص19.

عن هذه المدن ، و يعكس من منظر آخر جانبا هاما من جوانب تاريخ مدننا الإسلامية.[1]

و قد تأثر تشييد المدن الإسلامية بإنشاء الأسوار تأثيرا مباشرا وخصوصا فيما يتعلق بمساحتها و خلو كثير منها من المساحات كفضاء للميادين المتسعة و الحدائق الواسعة ، و إنشاء بعض التكوينات المعمارية خارجها ، و لا سيما تلك التي تشغل مساحات كبيرة كمصلى العيد أو الشريعة أو المصارة " أماكن عرض الجند "و الأسواق الأسبوعية.و غير ذلك من المنشآت التي فرضت ضرورة على تخطيط المدينة بإقامتها خارج أسوار المدينة.[2]

كما أن لسور المدينة و أبوابه ارتباطا بشوارعها ، و ضرورة بعد منازلها عنه لتوفير " الفيصل " اللازم للدفاع ، و لذلك أثره أيضا في الارتفاع الرأسي لمساكنها و ضيق شوارعها ، و امتداد المطلات عليها.

و بدأ إنشاء الأسوار و الخنادق في المدن الإسلامية، و منها دول المغرب العربي بهدف تأمينها و تأمين مركز السلطة لأنها تحولت من معسكرات حربية، و ظهر ذلك في مدن مثل المهدية و فاس و غيرها ، كما دعت الحاجة من فترة إلى أخرى حسب الأمن و السلم الحرب إلى إنشاء أسوار للمدن التي لم تكن لها أسوار ، أو تجديدها. و توسيع نطاقها لتعم الإمدادات العمرانية خارج الأسوار القديمة. و استتبع التطور العمراني توسيع نطاق الأسوار و وصلها ببعضها عن طريق الأبواب.[3]

---

1 – محمد عبد الستار عثمان ،المرجع السابق،ص121.

2 – عاصم محمد رزق،المرجع السابق،ص155.

3 – **عبد العزيز فيلالي:تلمسان في العهد الزياني**،موفم للنشر،الجزائر،2007،ج.1،ص111؛**عبد العزيز لعرج**،مجموعة المنشآت المعماريةللسلطان المريني أبي الحسن بالعباد تلمسان،(**مجلة دراسات تراثية**)،معهد الأثار،الجزائر،العدد،2،سنة 2008،ص56.

3 ــ مكونات السور الأساسية و مهامه الدفاعية و الهجومية:

تبنى الأسوار في الغالب بإحدى مواد ثلاث: الأحجار وخاصة في المدن الجبلية، الآجر أو الطين النيئ في مدن السهول والسواحل، ويكون سمك السور وارتفاعه مناسباً لموقع المدينة لذلك يختلف من مدينة إلى أخرى، ويدعم كل سور على مسافات محددة تتراوح بين 15-40م أبراج متنوعة منها المربع والمستطيل ونصف الدائرة وثلاثة أرباع الدائرة، وتتميز هذه الأبراج بارتفاعها عن مستوى ارتفاع السور، وكذلك باحتوائها على عدد من العناصر الدفاعية كالمزاغل بأنواعها والسقاطات والممشى بجدرانه الساترة وغيرها من العناصر التي يتم الدفاع بواسطتها عن المدينة.[1]

كان بناء الأسوار يعتمد على المادة الأساسية و هي اللبن في بداية الأمر، ثم رغبة في زيادة متانته و قوته لمقاومة ضربا ت المهاجمين بني السور بالحجر، فمثلا استخدمت " الطابية " في بناء أسوار بعض المدن في عهد المرابطين والموحدين باعتبارها أقوى من اللبن وعد ذلك من تطوير استخدامات مواد الإنشاء بهدف تقوية الأسوار.[2]

وتطور إلى تخطيط المدن المستديرة من أجل منح رؤية متكاملة وواضحة للجند المدافعين عن أسوار المدينة كما هو في تخطيط مدينة المنصورية. (ابن حماد).

وعلى أساس زيادة ارتفاع الأسوار تحقق رؤية أفضل، وبالتالي صد الهجمات. وحتى يصبح السور محور هجوم وليس دفاع فقط. وعليه تم تشييد ممرات في أعلاه مما يسهل حركية الجند المدافعين وتحقق للجند المشاة أو الركبان رؤية أفضل ومرمى أبعد وأوسع. ومنه أصبح السور خطا دفاعيا وهجوميا

1 – ابن الرامي ،المصدر السابق،ص 15ومابعدها.

2 – عبد العزيز فيلالي،المرجع السابق،ص111.

متكاملا.حيث تم تقويته ببناء أبراج على مسافات مختلفة تسهل الاتصال بين الحراس ، و هو الأمر الذي أدى إلى إضافة عناصر معمارية هامة على الأسوار فنية دقيقة.

و لقد تم مراعاة السمك في بناء الأسوار من أجل متانتها، و على عدم تمكين العدو من ثقبها بسهولة. كما يوفر طرق يمشي في أعلاه الجنود.

كما كانت الأبواب مصفحة بالحديد لمقاومة ضربات العد و كما هو في أبواب مدينة المهدية و التي تميزت عن غيرها من المدن باستخدام الروابط الرخامية على ارتفاع معين من أساس السور لتمنع من انهيار السور في حالة ثقبه من أسفله.[1]

و قد أخذ المرابطون و الموحدون نموذج بناء أسوارهم من أسوار القاهرة المصرية و قد تميزت أسوار المدن و القلاع في شمال إفريقية بأنماط متعددة من الأبراج التي اشتملت على الكثيرمن الحيل المعمارية التي تساعد على ضرب العدو ما يكشف عن براعة المخطط. و من هذه الحيل ما استخدم في أبراج أبواب المدن في عهد المرابطين و الموحدين ، و من أبرز أمثلتها ما يطلق عليه " الأبواب ذات المرافق " فهي تجعل الممر الواصل بين فتحتي الباب منحنيا بزاوية منكسرة قائمة في شكل " المرفق " و يمتاز بأنه يضع العراقيل و العقبات وراء انحناء الممر أمام المهاجمين مما جعل الموحدين ينشئون أبوابا ذات ثلاثة مرافق و من بينها باب أغنا وسور مراكش 541 ــ 558 هــ و باب الرواح بسور رباط الفتح الذي يلتوي الطريق بمدخله التواءات أربعة ، وباب قصبة رباط الفتح 558هــ - 595هــ.[2]

---

1 - محمد عبد الستار،المرجع السابق،ص143.

2 - **اسماعيل العربي،المدن المغربية**،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1984،ص338.

لقد كان السور يعكس تاريخ المدينة السياسي و الحربي و ما تعرضت له من أحداث بحيث كانت تدعم الأسوار الحصون و القلاع التي تبنى بجانب السور و من ذلك مدينة بنزرت حيث تمثل مأوى يختبأ فيه الناس في حالة الغزو ،كما كانت القلاع (القلعة) ظاهرة تقليدية ارتبطت بالحاجة إلى تأمين المدن و اتخاذها أحيانا قصرا للحكم و السلطة و من هذه المدن الرباط و بجاية الحمادية.[1]

مثلت الخنادق احدى التدعيمات الاساسية للسور،فالدولة الزيانية شيدت خندق عميق من الجهة الجنوبيةوالشرقية،بحيث دعم السور المبني من الطين والرمل والكلس،وتحصينا للمدينة في هذه الجهة،كما تم تشييد طريق موازي للسور لتسهيل مهمة الحراس لمراقبة المنطقة عبر فتحات.[2]

4 ــ الوسائل المستعملة في اختراق الأسوار:

لقد استعملت عدة وسائل و تقنيات حربية في اختراق الأسوار من أجل دخول المدن ، و من ذلك عملية النقب و الثقب بالآلات الثاقبة ، أو حرق أحجاره.

و من أهم آلات الحصار المستخدمة في العصور الوسطى لتخطي الأسوار و دخولها الكبش Ram ، و التقارب " الحفار" Bore " ، و برج الحصار Siege tower ، و الدبابة ، و برج الحصار المتحرك mobile Siege tower ، و سلالم تسلق الأسوار Scaling ladder و غيرها.[3]

1- **جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين**، دار الوفاء، للطباعة والنشر، الإسكندرية، ص49،50.

2 – فيلالي، مرجع سابق، ص114.

3 – محمد عبد الستار، مرجع سابق، هامش 8، ص164.

وكان تصفيح الأبواب بالحديد من الوسائل المستخدمة لتقويتها أمام الضربات، وأمام النارالتي كانت تستعمل في إختراق الأسوار بهدف إقتحامها والدخول إلى المدينة.[1]

ومن بين الأولويات التي كانت تتخذ كتدبير عسكري لحماية المدن هي إقامة الأسوار والخنادق والحصون.وتحقيق هذه الغاية تحقيقا سليما ،كان يشكل إحدى الأساليب الدفاعية والهجومية،مع توفر آلات الحصار المستخدمة.وتخطيط الأسوار والقلاع والأبراج والحصون ارتبط بتطور وسائل الدفاع والهجوم ومختلف أساليبهما.

وقد تطلب موقع بعض المدن انشاء المحارس والنواظر لمراقبة السواحل التي قد يهاجم منها الأعداء،ومن بين هذه المدن مدن الساحل الشمالي لافريقيا،ومنها من وجهت تحصينها الحربي مباشرةلإنشاء الخنادق والأسوار والفياصل،مثل مدينة المهدية،حيث مثل السور أهم هذه الإنشاءات الحربية،ومن بين الوسائل التي استعملت للتغلب على الاسوار،نقبها بآلات الثقب،أو بحرق أحجارها لتتحول إلى جير وتتصدع،أوتسلقها عن طريق الأبراج الخشبية، والسلالم المتحركة.[2]

5- السور من الناحية الشرعية:

يمثل الأمن والأمان قيمة أساسية لنشأة المجتمع الحضاري المستقر. وما يؤكد هذه الأهمية هو ضرورة تحصين المدينة من السلب والنهب لدفع هذا الخطر وعليه فالأسوار والاستحكامات والخنادق من خصائص المدن حتى القرن 18م في أوروبا بل حتى اليوم في أجزاء قليلة من العالم.

---

1 - فيلالي،مرجع سابق،ص112.

2 - محمد عبد الستار،مرجع سابق،ص136،137.

واعتبارا للضرورة الأمنية اعتبر السور من المعايير الحضارية التي تميز المدن. واعتبر الإسلام بناء الأسوار والأبراج و القلاع والحصون من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس و المال و العرض و هي من مقاصد الشريعة الإسلامية. ومن هنا صنفها الفقهاء تصنيفا يضعها في عداد "البناء الواجب" وخاصة إذا كانت الحاجة ملحة لاستخدامها في الدفاع عن حرمات المسلمين.[1]

ووقفت عليها الأحباس لترسيمها وتقويتها، وحكم الفقهاء بالتزام العامة في المشاركة في بنائها ما دامت تتحقق مصلحتهم بإنشائها وخصوصا إذا دعت الظروف إلى ذلك.كما دعت هذه الأحكام أيضا إلى المحافظة عليها وعدم هدمها وإزالتها حتى لو انتفت الحاجة الملحة إليها ، لأنه ربما يحتاج إليها لاحقا.

ونظمت هذه الأحكام كل ما يتعلق بالأسوار سواء كانت مستقلة ، أو كانت تشكل أجزاء من حوائط البيوت المتصل بها من حيث وجوب الاهتمام بها و عمارتها. كما أنها نظمت قواعد التعاون بين العامة لإحاطة محلاتهم السكنية بالأسوار والدروب الخاصة التي تكفل حمايتهم.[2]

6- نماذج من المدن المسورة:

أ ــ تلمسان الزيانية: تحصنت مدينة تلمسان في العهد الزياني بعدة أسوار عالية ومتينة وتميز بناؤها بالقوة والصلابة فكانت بذلك محصنة تحصينا قويا وقدر عددها بنحو سبعة أسوار وكانت متباعدة أي أنها مفصولة ببعضها كمسافات قصيرة، استعملت عدة مواد في بناءها مثل الآجر بينما قاعدة السور كانت متينة بالحجر الصلب، وفي جهات أخرى استعمل الرمل والطين والكلس المدكوك.[3]

1- نفسه، ص. 135.

2- **الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى علماءافريقية والأندلس**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج.5، ص. 352.

3 - فيلالي،مرجع سابق،ص111.

ففي عهد يغمرا سن الذي أمر ببناء عدة أسوار لها عام 668هـ/ 1268م وتحصينها خاصة من ناحية باب كشوط أي في الجنوب الغربي، وكانت تعلوها أبراج وكانت مرتفعة ومزدوجة، وتدعمها حصون مربعة الشكل وكانت مداخلة مع بعضه في جهة القصبة وكان الهدف من ذلك تقوية حصانتها الدفاعية ودفع كل الأخطار القادمة لها من هذه الجهة، وكانت طبيعة هذه الأسوار على شكل أسنان دائرة على شكل منجل وقد تدعمت هذه الأسوار بعدة أبراج متقاربة قوية وعالية الهدف منها مراقبة كل التحركات و من أهمها:

برج القشاقش: شيد على ضفة وادي متشكانة ،يرتبط بالمدينة عبر طريق مغطاة بالأقواس.[1]

برج الطاحونة: يقع في جنوب المدينة بالموضع الجبليا لذي يربط لالاستي،من اجل المراقبة والحماية.

برج امامة: وهوعبارة عن قصر كبير، شيد على شكل قلعة مرتفعة توجد في الشمال الغربي، من مدينة تلمسان، شهدت عدة محن بسبب هجومات الاعداء على المدينة،لأنه يعتبر الخط الدفاعي الأمامي الأساسي لتلمسان. فقد حاصرها السلطان ابو يعقوب عبد الحق المريني مدة اربعين يوما، لكنه عجز عن دخولها فعاد خائبا يجر اذيال الهزيمة وكان ذلك عام689هـ/1291م.

قلعة ابن الجاهل: و هي حصن هام،انشأه الزيانيون،في الجهة الجنوبية المكشوفة للدفاع عن المدينة، ففي هذه الناحيةلعبت ادواراً دفاعية محكمة، بحيث كانت حاميتها تتصدى للهجومات، التي تأتي من الشرق و الجنوب، وبالقرب من باب العقبة بني برجان كبيران مربعان بالجر والحجارة المأخوذة من الآثار الرومانية.

1- **زكريا يحي بن خلدون،بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تح. عبد الحميد حاجيات،الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ص90؛ amar dhina ,califes et souverans,enal,alger,1991,p105.

فقد كانت إذن هذه الابراج و القلاع و الاسوار التي تحيط بمدينة تلمسان من جميع الجهات المختلفةعاملا مهماً في تسهيل مهمة المراقبة، والدفاع عن السكان، وربما هذا هو السحر الذي جعل أهل تلمسان يصمدون في المقاومة، ويتصدون للحصار فترة طويلة زادت عن ثماني سنوات، ويفشلون أغلب الهجومات المتكررة على مدينتهم من الشرق والغرب.[1]

كانت أسوار مدينة تلمسان صامدة أمام الهجمات المتكررة من المرينيين،وأكد قصفها بالاسلحة والمنجنيقات وطول حصارها على حصانة أسوارها ومناعتها،خاصة الحصار الذي فرضه السلطان المريني ابو يوسف يعقوب699هـ/1299م، وبناء مدينة المنصورة،لكن الحصاررفع بعد اغتيال السلطان المريني،حيث عانت فيه تلمسان ويلات الجوع وأشرفت على الهلاك.[2]

وتعد المنصورة المدينة الثالثة التي تتشكل منها تلمسان بعدأغادير وتاكرارت.أصبحت هذه المدن ا لثلاثة تكون نسيجاً عمرانياً دقيقًا،يحيط بهما السورمما جعلهم مدينة واحدة.واشتملت أسوار مدينة تلمسان على خمسة أبواب رئيسية واسعة،شيدت على جانبي كل واحدة منهامراكز حراسة بمثابة ابراج صغيرة،مربعة الشكل لمراقبة الضواحي والأماكن المجاورة،والداخلين الى المدينة والخارجين منها باستمرار،وأسست هذه الابواب بعد دمج المدينتين واحاطتهما بالاسوارالمتعددة[3]، وكانت الابواب مصفحة بالحديد ومدعمة بحصون قوية صعبة الاختراق، ولها مصاريع حديدية تغلق بها وأهم هذه الابواب هي:باب العقبة،أقدم الابواب بني في شرق المدينة، من بقايا الاحجار الرومانية.وباب سيدي الحلوي، يقع في الشمال،كما يعرف بباب علي. وباب

1 – فيلالي، مرجع سابق، ص111،112

2 – يحي بن خلدون،مصدرسابق، ج.1، ص210.

3 – عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص55.

القرمادين يوجد في الشمال الغربي، يمثل الحصن الدفاعي الاساسي، وكان يوجد بالقرب من أفران صناعة الفخار والآجروالقرميد. وباب كشوط الذي بناه يغمراسن وحصنه بالأبراج والأسوار العالية.

لقد احتفظت تلمسان بالابواب الداخلية، وهي ثانوية عبارة عن فتحات في الاسوار، على شكل أنفاق يستعملها الجند ورجال الدولةمثل الممرات أثناء الحاجة.[1]

ب– مدينة فاس المغربية:

كان ابتداء العمل في أسوار مدينة فاس مع بداية تأسيس عدوة الأندلس على يد الإمام إدريس الثاني عام 192 هجرية، وقد جاء في «جنى زهرة الآس» «أن الإمام أقام بالموضع المعروف بجرواوة وابتدأ سورها من جهة القبلة وفتح هناك باب القبلة، ثم مر بين الموضع المعروف بالفوارة وموضع زيتون ابن عطية وفتح هناك بابا سماه بباب الفوارة، ثم مر بالسور على الموضع المعروف بالمخفيةبالوادي الكبير إلى برزخ وفتح هناك بابا سماه باب المخفية، ثم مر بالسور إلى الشيبوبة وفتح بابا سماه باب الشيبوبة، ثم مر بالسور إلى رأس حجر الفرج وفتح هناك بابا سماه باب أبي سفيان، ثم مر بالسور على جرواوة وفتح هناك بابا سماه باب الكنيسة يعرف الآن بباب الخوخة ثم مر بالسور إلى أن وصل باب القبلة المذكور".[2]

1- **عبيدالله البكري، المسالك والممالك، تح. جمال طلبه، دار الكتب العلمية**، بيروت، لبنان، ط.1،2003، مج.2، ص259.

2 - **علي الجزنائي،جني زهرة ألاس في بناء مدينة فاس**، تح. عبدالوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ط.2،1991، ص. 42،43.

وبهذا الوصف يتضح أن سور عدوة الأندلس قد استقل بالأندلس عما سواها، وبعدها سيتم الشروع في بناء سور القرويين عام 192 هجرية[1]، إذ بدأه من رأس عقبة عين علون وبها فتح باب افريقية ثم مر بالسور إلى عين دوردور إلى عقبة الصعتر وفتح هناك بابا سماه باب القوس، ثم مر بالسور إلى أغلان وفتح هناك بابا سماه الفصيل ثم مر بالسور مع ضفةالوادي، وفتح هناك بابا سماه بباب الفرج (ويعرف بباب السلسلة) ثم مر بالسور إلى مقربة من عيون ابن الصادي، وفتح هناك بابا سماه باب الحديد. ثم مر بالسور لأعلى عقبة الجرف وفتح هناك بابا سماه بباب القلعة، ثم مر بالسور حتى وصل به باب افريقية المذكور. فاكتمل بذلك بناء سور عدوة القرويين لتصير المدينتان مستقلتين عن بعضهما، ولما ولى دوناس بن حمامة المغراوي أمورفاس عكف على ترميم هذه الأسوار وتجديدها وحصن أرباض[2] المدينة من كل جهاتها، وولي بعده ولداه الفتوح وعجيسةفاستقل الفتوح بعدوة الأندلس وحصنها وبنى بها قصبة بموضع الكدان وفتح بها الباب المعروف إلى اليوم باسمه، وكذلك فعل أخوه عجيسة بعدوة القرويين حين زاد تحصيناتها وبنى بها قصبة بعقبة الصعتر وفتح بها بابا عرف في عهده بباب عجيسة، فلما ظفر به الفتوح وقتله كره أن يبقى الباب باسمه فأسقط الناس حرف العين وعوضوه بالألف واللام فقالوا «باب الجيسة» وهو الاسم المتداول إلى يومنا هذا [3].

ولما دخل المرابطون مدينة فاس ارتأى يوسف بن تاشفين أن ينهي حالة الصراع بين العدوتين فهدم الأسوار الفاصلة بينهما وحول مدينة فاس إلى قاعدة

---

1 -- **ليفي بروفنسال ،الإسلام في المغرب والأندلس** ،تر.عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي،مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية،مصر،1990،ص8،9.

2 –الربض:ماحول المدينة من البيوت والمساكن،(انظر،عاصم محمد رزق،المرجع السابق،ص176.)

3 – علي الجزنائي،مصدر سابق،ص40ومابعدها.

لعملياته العسكرية. وإذا كانت فاس في زمن الأدارسة لا تحتضن غير برجين عسكريين صغيرين فذلك راجع إلى أن النشاط الحربي للأدارسة كان مقتصرا على المغرب الأقصى لا يتعدى حدود الرقعة الجغرافية التي بسط الأدارسة عليها نفوذهم بخلاف العهد المرابطي الذي شهد عمليات حربية كبرى غيرت تاريخ شمال إفريقيا وجنوب أوربا وامتدت جنوبا نحو نهر السنغال[1]. ولموقع فاس المتميز كان بديهيا أن تنطلق منها الجيوش نحوتازة وتلمسان وأن تأوي إليها الحاميات العسكرية التي كانت تتأهب للعبور نحو الأندلس، وعليه فقد أضاف المرابطون لتحصينات فاس وأسوارها لمسات مرابطية شاهدة على مرور دولتهم بهذه المدينة، وفي هذا السياق يشير الجزنائي إلى أن المرابطين أصلحوا سورالوادي الكبير بقرب حوض السفرجل والسور الذي بأسفله بالرميلة ويروي ابن القاضي في «جذوة الاقتباس» أن عليا بن يوسف بنى سور الفورجة الذي يربط باب الجيسة وباب أصليتن، واختط يوسف بن تاشفين لجنده قصبة بوجلود في مكان يشرف على المدينة بالموضع الذي لازال يحمل نفس الاسم إلى اليوم، ولا شك أن تلك القصبة كانت أضخم بكثير مما هي عليه اليوم، إذ يقول ليون الإفريقي أنها كانت تضاهي مدينة أخرى في الكبر، والراجح حسب رواية ليون أنها كانت أشبه بمدينة عسكرية تجري فيها عمليات الإعداد للغزوات والمعارك، غير أن جل آثارها انمحت بعد قيام الدولة الموحدية [2].

في عام 542 هجرية أمر عبد المومن بن علي بهدم معظم أسوار مدينةفاس وقال قولته الشهيرة: «إننا لا نحتاج إلى أسوار إنما أسوارنا أسيافنا وعدلنا»، غير أنه مع انقضاء عهد عبد المومن ارتأى يعقوب المنصور إعادة بنائها وأتم ولده الناصر عمله وبنى قصبة الوادي وباب الشريعة الذي سمي فيما

1 – نفسه،ص42،43.

2 – جمال أحمد طه،المرجع السابق،ص52.

بعد بباب المحروق بعد إخماد ثورة العبيدي الذي علق رأسه وأحرقت جثته بها، وهو نفس المصير الذي سيلقاه لسان الدين بن الخطيب لاحقا، وهذا منشأ وهم بعض المؤرخين الذين ربطوا اسم هذا الباب بما حدث لابن الخطيب، ولأن الموحدين خلفوا المرابطين في إمبراطوريتهم المترامية الأطراف فقد حافظت فاس في عهدهم على أهميتها العسكرية وصارت قاعدة لعملياتهم الحربية في الأندلس، ويرى عدد من المؤرخين أن حال الأسوار اليوم يتطابق كثيرا مع الأسوار التي بناها الناصر الموحدي مما يعزز فرضية أن تكون هذه الأسوار امتدادا لأسوار الناصر. ولما حل العهد المريني شيد المرينيون فاس الجديد وأحاطوه بالحصون والأسوار .[1] وتطورت التحصينات في عهدهم تطورا ملفتا للانتباه، إذ أن الأسوار ستصير أكثر علوا وسمكا مما كانت عليه في السابق، وهكذا يستطيع زوارفاس أن يلاحظوا الفرق بين التحصينات الموحدية والمرينية في سهولة ويسر. وفي المدينة البيضاء أوفاس الجديد تتجلى البصمات المرينية واضحة للعيان، فقد كانت هذه المدينة شبه ثكنة عسكرية في العهد المريني وهكذا ستتحول فاس في زمنهم إلى كتلتين متنافرتين، إحداهمافاس الجديد والأخرى فاس البالي وهو تقسيم ألغى التقسيم السابق الذي ساد في العهد الإدريسي والذي كان يميز عدوة الأندلس عن عدوة القرويين، والملاحظ في الفترة المرينية أن البناء قد تأثر إلى حد كبير بظهور القذائف والأسلحة النارية فمن البديهي أن تصير الأسوار أكثر سمكا وعلوا لحمايةالمدينة من غارات العدو.[2]

---

1 – الجزنائي،مصدر سابق،ص43.

2 – atllah dhina,les etats de l’occident musulman aux 13é et 15é sécles,enal,alger ,1984,p123

لم يشأ المرينيون الاقتصار على القصبات الموحدية التي كانت معدة لاستقبال جيش عرمرم كان على أهبة الاستعداد على الدوام لخوض الحروب في الأندلس على قدر استعداده لإخماد الفتن والثورات في كل أنحاء المغرب الكبير، ولعل هذا الاختيار لم يكن متعلقا بجاهزية هذه القصبات وحجمها بقدر ماكان متعلقا بمبدأ عسكري ساد عند المغاربة في تلك الأزمنة، فالغالب لا يركن إلى مآوي المغلوبين، ثم إن التنافس بين السلاطين في تخليد أسمائهم كان دافعا حاسما لكل واحد منهم كي يبدع في البناء مثلما يبدع في غيره، ولذلك فقد تحول المرينيون عن قواعد الموحدين وأنشؤوا قصباتهم وأبراجهم الخاصة، التي نذكر منها على سبيل المثال برج الذهب الذي وردت الإشارة إليه عند ابن الأحمر في «روضة النسرين»، وجاء في وصفه ''أنه برج شاهق كان يختلف إليه السلطان أبو الحسن المريني كل اثنين وخميس لينظر في حاجيات الجند وشكاواهم وليقف بنفسه على جاهزية الجيش فيعرف الفارس فيهم من غيره،'' ويمثل هذا البرج طفرة حقيقية في مجال الإعداد العسكري للجيش المغربي، إذ ورد أنه كان مشرفا على ساحة كانت تجري فيها المناورات العسكرية فينظم الجنود أنفسهم ويتصارعون ويشتبكون وكأنهم في حرب حقيقية ويراقب السلطان ذلك من برجه ليعرف مكامن الخلل في جيشه[1]. إن هذه الأبراج والقصبات والأسوار التي تزين مدينة فاس التاريخية اليوم وتعد قبلة للسياح والدارسين على حد سواء تمثل مفتاحا حقيقيا لتتبع تطور العلوم المرتبطة بالبناء والعمران عبر الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، كما تمثل مظهرا هاما من مظاهر القوة العسكرية لتلك البلدان، فإذا كانت مدارس فاس ومكتباتها توحي للزائر أنها مدينة حضارة وعلم فإن أسوارها وتحصيناتها توحي أنها مدينة محاربة

1- اسماعيل الأحمر، روضة النسرين في دولة بن مرين، تح.عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط.3، 2003، ص30.

جيشت الجيوش وأرسلت البعوث والسرايا نحو مختلف الأقطار. بقي أن نضيف إضافة غاية في الأهمية، في سياق الحديث عن قيمة هذه الأسوار، وهي أن تكلفة ترميم متر مكعب واحد من الأسوار التاريخية يتطلب ميزانية ضخمة، وإذا أخذنا في الحسبان أن ارتفاعها يتراوح بين سبعة وعشرة أمتار فإن ذلك يعني أن ترميم مائة متر قد تتطلب ما يقارب الملايين، مما يعني أن بناء آلاف الأمتار التي تحيط بالمدينة، على نحو ما نشاهد اليوم، في تلك الأزمنة لم يكن عملا هينا البتة، فهو جهد لا تقوم به إلا الدول العظيمة التواقة إلى الرفعة والمجد.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن.

1. ابن الرامي،الإعلان بأحكام البنيان،تح.محمد عبد الستار عثمان،دار الوفاء،دنيا الطباعة والنشر،الأسكندرية.
2. -أبي زكريا يحي بن خلدون،بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،تح.عبد الحميد حاجيات،الجزائر عاصمة الثقافة العربية،2007.
3. اسماعيل الأحمر،روضة النسرين في دولة بن مرين ،تح.عبد الوهاب بن منصور،المطبعة الملكية، الرباط،ط.3 ،2003.
4. اسماعيل العربي،المدن المغربية،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1984،ص338.
5. -الونشريسي،المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى علماءافريقية والأندلس،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981،ج.5.
6. -جمال أحمد طه،مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين،دار الوفاء،للطباعة والنشر،الإسكندرية،ص49،50.
7. -عاصم محمد رزق ،معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية ،مكتبة مدبولي،ط.1.2000.
8. عبد الأحد السبتي،وحليمة فرحات،المدينة في العصر الوسيط،المركز الثقافي العربي،بيروت ،لبنان،ط.1994،1.
9. عبد العزيز فيلالي:تلمسان في العهد الزياني،موفم للنشر،الجزائر،2007،ج.1.
10 -عبد العزيز لعرج،مجموعة المنشآت المعماريةللسلطان المريني أبي الحسن بالعباد تلمسان،(مجلة دراسات تراثية)،معهد الأثار،الجزائر،العدد،2،سنة 2008.
11-عبد الله العلايلي وآخرون:المنجد في الأعلام،دار المشرق،بيروت،ط. ،.1973.17.
12-عبيدالله البكري، المسالك والممالك، تح.جمال طلبه، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان، ط.1،2003، مج..2
13-علي الجزنائي، جني زهرة ألاس في بناء مدينة فاس، تح.عبدالوهاب بن منصور، المطبعة الملكية،الرباط، المغرب، ط.2 ،.1991

14-الفيروز آبادي،القاموس المحيط،تقديم،محمد عبد الرحمان المرعشلي،دار إحياء التراث العربي،بيروت، لبنان، ط.2،2003.

15-ليفي بروفنسال ،الإسلام في المغرب والأندلس ،تر.عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي،مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية،مصر،.1990

16- محمد عبد الستارعثمان ،المدينة الاسلامية،سلسلة عالم المعرفة'،عدد،168،مطابع الرسالة،الكويت.

10. Amar dhina ,califes et souverans,enal,alger,1991

Atllah dhina,les etats de l'occident musulman aux 13é et 15é sécles,enal,alger ,1984. **–18**